المعصية في الإسلام بين الزلة والكفر

كتبه غريب بتاريخ الأربعاء ١٤ شوال ١٤٤٢

لقد كانت منزلة المعاصي في الإسلام تسبب جدلا كبيرا بين الناس, فمنهم من يكفر بالمعصية مطلقا, وهذه هي الصفة الأشهر لمن يسميهم الناس الخوارج, ومنهم من يرى أنه لا يضر مع الإيمان – الذي هو بمعنى التصديق فقط دون العمل – معصية, وهذه هي صفة المرجئة, مما يجعل معرفة منزلة المعصية في الإسلام, – هل هي أمر عادي غير ذي بال, أم أنها مكفر صاحبها يخرج من الملة – أمراً ملحاً جدا وخصوصاً في أيامنا هذه.

لكي نجيب على هذا السؤال, سوف نعود للقرآن والسنة فقط كما أُمرنا, غير مبالين بالتراث في المسألة, لنعرف منزلة المعصية في الإسلام, وذلك عبر المحاور التالية:

- مفهوم المعصية في الإسلام
- أنواع المعاصي
  - الكبائر
  - اللمم
- منزلة المعصية في الإسلام
  - متى تكون المعصية زلة
  - متى تكون المعصية كفرا
- حكم التكفير بالمعصية
- رؤية المسلم للمعصية
- كيف انتشرت المعاصي

مفهوم المعصية في الإسلام

علمنا في ما سبق, أن الإسلام هو قرار يتخذه المرء بأن يسلم نفسه كلها لله إسلاما خالصا له سبحانه وتعالى, فلا يطيع إلا الله عز وجل في حياته كلها.

‹قُل إِنَّ صَلاتي وَنُسُكي وَمَحيايَ وَمَماتي لِلَّهِ رَبِّ العالَمينَ۝لا شَريكَ لَهُ وَبِذلِكَ أُمِرتُ وَأَنا أَوَّلُ المُسلِمينَ›

[الأنعام: ١٦٢-١٦٣]

لذلك فالمعصية مبدئياً إخلال من العبد بعقد الإسلام، لأنه حين عصى الله عز وجل، أطاع نفسه بدلاً من أن يطيع الله عز وجل.

وقد عبر الله عن الإخلال بكونه الغواية يقع فيها الإنسان، فقال مخبرا عن آدم عليه السلام:

‹ ... وَعَصى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى›

[طه: ١٢١]

وعبر عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله:

«لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر شاربها حين يشربها وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا ينتهب نهبة، يرفع الناس إليه فيها أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن»

لذلك المعصية خرق لعقد الإسلام الذي قطعه المرء على نفسه حين قرر أن يسلم لله عز وجل، وهذا الخرق يتفاوت في درجته إلى نوعين كما سنرى

أنواع المعاصي

قد يعتقد البعض أن المعاصي ما دامت معصية لأمر الله فهي في نفس الرتبة إذ أن خطورتها تكمن في كونها معصية أمر الله سبحانه قيوم السماوات والأرض ومن فيهن، وليس في طبيعة المعصية نفسها

بمعنى أن حلق اللحية مثلا لا ينظر إليه من زاوية كونه مجرد حلق بعض الشعر على اللحية، وإنما هو معصية لأمر الله ومن ثم فهو عظيم، فالله كل أوامره عظيمة تستمد عظمتها منه سبحانه وتعالى.

هذا التصور وإن كان صحيحاً من حيث المنطق إلا أنه يهمل بعداً آخر يجب أن يأخذ في الحسبان، وهو مدى قدرة المرء على القيام بالمعصية

بمعنى أن المرء الذي يرتكب المعصية مجبراً على ارتكابها, ليس كمن يرتكب المعصية بكامل إرادته, ويسعى فيها, لا شك أن الفرق بين الاثنين كبير جدا, فالأول قد يصل لمرحلة لا يعتبر فيها عاصٍ أصلا, وهي مرحلة الإكراه الشديد, وقد يصل إلى ما دونها بحسب الظروف التي تحيط به, والتي لا يمكنه تغييرها .

هذا المفهوم في التفاوت بين المعاصي أشار إليه الله عز وجل في قوله واصفا المؤمنين :

﴿الَّذينَ يَجتَنِبونَ كَبائِرَ الإِثمِ وَالفَواحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ واسِعُ المَغفِرَةِ ... ﴾

[النجم: ٣٢]

فالله أخبرنا في هذه الآية أن المعاصي تنقسم إلى كبائر ولمم, ويمكننا أن نعرف من خلال هذا التقسيم المقصود بالكبائر والمقصود باللمم

الكبائر

هي المعاصي التي يمكن للإنسان تجنبها, أي أنها المعاصي التي تتطلب إرادة من الشخص لكي يقوم بها, فلو لم تكن كذلك لما ذكر الله واصفا المؤمنين أنهم يجتنبون الكبائر, ولما قال :

﴿إِن تَجتَنِبوا كَبائِرَ ما تُنهَونَ عَنهُ نُكَفِّر عَنكُم سَيِّئَاتِكُم وَنُدخِلكُم مُدخَلًا كَريمًا﴾

[النساء: ٣١]

فالكبائر إذاً هي ما يمكن اجتنابه من المعاصي

اللمم

اللمم مشتقة من فعل أَلَمَّ وهو ما يلم بالإنسان فلا يمكنه التحرز منه, فاللمم من المعاصي هو ما يصعب التحرز منه نظرا لانتشاره وهذا دلت عليه الآية السابقة:

﴿الَّذينَ يَجتَنِبونَ كَبائِرَ الإِثمِ وَالفَواحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ واسِعُ المَغفِرَةِ ... ﴾ [النجم: ٣٢]

فمعنى الآية هو أن المؤمنين الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم التي لا يمكنهم اجتنابها فالله واسع المغفرة سيغفر لهم هذا اللمم كما وعد في قوله:

‹إِن تَجتَنِبوا كَبائِرَ ما تُنهَونَ عَنهُ نُكَفِّر عَنكُم سَيِّئَاتِكُم وَنُدخِلكُم مُدخَلًا كَريمًا›
[النساء: ٣١]

حذف ما هو معلوم من سياق الكلام كثير جدا في القرآن, فالقرآن في منتهى البلاغة, والبلاغة هي الكلام الخالي من الحشو, فإذا أغنى السياق عن الكلام لا يؤتى بالكلام, لأنه سيكون حشوا ومن أمثلته التي لا تكاد تحصى في القرآن قوله سبحانه:

‹وَلَو أَنَّ قُرآنًا سُيِّرَت بِهِ الجِبالُ أَو قُطِّعَت بِهِ الأَرضُ أَو كُلِّمَ بِهِ المَوتى بَل لِلَّهِ الأَمرُ جَميعًا...› [الرعد: ٣١]

هنا حذف "لكان ذلك" أي أن تقدير الكلام ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى لكان ذلك ولكن لله الأمر جميعا بما فيه الهداية التي هي موضوع الآية

لذلك قوله سبحانه

إلا اللمم

لا يعني الإذن بارتكاب هذا النوع من المعاصي, معاذ الله, وإنما يعني أنه يوجد بعض المعاصي التي لا يمكن للمسلم تجنبها, الله يغفرها له إذا اجتنب الذي يمكنه اجتنابه.

منزلة المعصية في الإسلام

نظريا المسلم هو من أسلم نفسه لله فلا يعصي الله عز وجل مطلقا, هذا هو المفروض أن يكون نظرا لعقد الإسلام.

ولكن واقعيا الأمر مختلف جداً فالمسلم يقع في المعاصي دوماً, فهو في مجاهدة دائمة لنفسه ولا يخلو من لحظات ضعف يقع فيها في معاصي ثم يتوب منها ومن هنا يمكن أن نقسم المعصية إلى منزلتين :

متى تكون المعصية زلة

إن المسلم عبد منيب إلى الله في حالة مجاهدة لنفسه متواصلة دائم التوبة وهو في هذه الحال بحسب قوة إيمانه وصبره ينقسم إلى ثلاث مراتب كما أخبرنا ربنا عز وجل:

‹ثُمَّ أَورَثنَا الكِتابَ الَّذينَ اصطَفَينا مِن عِبادِنا فَمِنهُم ظالِمٌ لِنَفسِهِ وَمِنهُم مُقتَصِدٌ وَمِنهُم سابِقٌ بِالخَيراتِ بِإِذنِ اللَّهِۚ ذلِكَ هُوَ الفَضلُ الكَبيرُ› [فاطر: ٣٢]

فهو إما أن يكون ضعيف الإيمان كثير الخطأ، كثير التوبة، لا يكاد يقف حتى يقع، ولكنه مع ذلك في مجاهدة دائمة لنفسه، لا يستسلم منيب إلى الله عز وجل.

وإما أن يكون في درجة متوسطة يقف أحيانا ويسقط أحيانا ولكنه يظل مجاهدا لنفسه

وإما أن يكون سابقا بالخيرات من النادر وقوعه في المعصية وهو مع ذلك دائم الإنابة إلى الله عز وجل.

ففي كل هذه الحالات المعصية تبقى زلة ويبقى صاحبها مسلما قد جبر خرق المعصية لعقد الإسلام بالتوبة إلى الله عز وجل والإنابة إليه سبحانه

متى تكون المعصية كفرا

في المقابل إذا وقع المرء في المعصية ورانت على قلبه حتى اعتادها فإنها حينئذ تكون معصيته كفر صريح بالله وهو إبليس سواء ولا فرق بينهما وقد دلت على ذلك آيات كثر منها قوله سبحانه في وصف الكفار:

‹كَلّا بَل رانَ عَلى قُلوبِهِم ما كانوا يَكسِبونَ› [المطففين: ١٤]

‹وَالَّذينَ يَمكُرونَ السَّيِّئَاتِ لَهُم عَذابٌ شَديدٌ وَمَكرُ أُولئِكَ هُوَ يَبورُ› [فاطر: ١٠]

فالمعصية تكون كفرا حين يصر المرء عليها ويعتادها لدرجة أنه لا يتوب منها.

حكم التكفير بالمعصية

مما سبق يظهر أن المعصية تكون كفرا حين يصر المرء عليها ولا يتوب منها، والإصرار عقد العزم وهذا أمر قلبي لا يمكن لإطلاع عليه إلا بأن يخبر المرء عن نفسه، كما هي الحال مع إبليس حين أجاب ربه قائلا:

‹قالَ ما مَنَعَكَ أَلّا تَسجُدَ إِذ أَمَرتُكَ قالَ أَنا خَيرٌ مِنهُ خَلَقتَني مِن نارٍ وَخَلَقتَهُ مِن طينٍ› [الأعراف: ١٢]

أو يكون ظاهرا من حاله أنه مصر عليها، كأن تصبح المعصية له عادة، مثل حال اليهود في المدينة الذين اعتادوا محاربة بعضهم البعض مع حلفائهم من الأوس والخزرج فقد قال الله عنهم:

‹ثُمَّ أَنتُم هؤُلاءِ تَقتُلونَ أَنفُسَكُم وَتُخرِجونَ فَريقًا مِنكُم مِن دِيارِهِم تَظاهَرونَ عَلَيهِم بِالإِثمِ وَالعُدوانِ وَإِن يَأتوكُم أُسارى تُفادوهُم وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيكُم إِخراجُهُم أَفَتُؤمِنونَ بِبَعضِ الكِتابِ وَتَكفُرونَ بِبَعضٍ فَما جَزاءُ مَن يَفعَلُ ذلِكَ مِنكُم إِلّا خِزيٌ فِي الحَياةِ الدُّنيا وَيَومَ القِيامَةِ يُرَدّونَ إِلى أَشَدِّ العَذابِ وَمَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمّا تَعمَلونَ› [البقرة: ٨٥]

ما عدا هاتين الحالتين لا يمكن معرفة ما إذا كان من ارتكب المعصية قد تاب منها أو مصر عليها، ونظرا لكون التكفير حكم بالظاهر فإنه لا يجوز التكفير بالمعصية خارج هاتين الحالتين.

رؤية المسلم للمعصية

لتعرف رؤية المؤمن لمعصيته التي ارتكبها يكفي أن تعرف أن مغفرة الذنب الناجم عنها أكبر من دخول الجنة نفسها، وقد دلت على ذلك آيات كثيرة، يعد الله فيها المؤمنين بالمغفرة أولا، والجنة ثانيا، منها على سبيل المثال لا الحصر قوله سبحانه:

‹إِنَّ الَّذينَ يَخشَونَ رَبَّهُم بِالغَيبِ لَهُم مَغفِرَةٌ وَأَجرٌ كَبيرٌ› [الملك: ١٢]

إن المعصية عند المؤمن سبب في حزن دائم، وخوف شديد من أن يناله عذاب الله بسببها، ولذلك يوم القيامة يحمد المؤمنون الله على ذهاب هذا الحزن بمغفرته للذنب وتقبله للعمل، قبل أن يحمدوه على الجنة وما فيها من راحة ونعيم، حيث قال ربنا مخبرا عنهم:

‹جَنّاتُ عَدنٍ يَدخُلونَها يُحَلَّونَ فيها مِن أَساوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤلُؤًا وَلِباسُهُم فيها حَريرٌ۝وَقالُوا الحَمدُ لِلَّهِ الَّذي أَذهَبَ عَنَّا الحَزَنَ إِنَّ رَبَّنا لَغَفورٌ شَكورٌ۝الَّذي أَحَلَّنا دارَ المُقامَةِ مِن فَضلِهِ لا يَمَسُّنا فيها نَصَبٌ وَلا يَمَسُّنا فيها لُغوبٌ› [فاطر: ٣٣-٣٥]

إن المؤمن يعلم من شؤم المعصية على القلب ما يجعله خائفا من أن تكون المعاصي قد رانت على قلبه، لذلك يراها عظيمة جدا وحق له ذلك، فمعصية اللّه عظمة خطورتها تكمن في كونها معصية أمر اللّه العظيم نسأل اللّه السلامة والعافية.

كيف انتشرت المعاصي

لقد أدت عوامل عدة إلى انتشار المعاصي في هذه الامة، أهمها في تصوري الفتح الإسلامي السريع لكثير من البلدان والذي أدى بدوره إلى ضعف الدين في نفوس الجيل الثاني والثالث من سكان البلاد المفتوحة

هذا الأمر نتج عنه ظهور الخوارج الكفار والذين كانوا يكفرون المسلمين، وظهور من يكفر بارتكاب الكبائر بغير ضابط بحيث أن من ارتكب كبيرة كافر مرتد عندهم دون أن يضعوا احتمالا لكونه ربما تاب منها، مما خلق ردة فعل قوية من الإرجاء جعلت الكفر شبه مستحيل ما دام المرء لم يقر بأنه قد كفر، فهو مسلم

هذا الإرجاء يلامس أهواء العامة من الناس فهو يحررهم من التكاليف ويعدهم بجنة الخلد مع النبيين والصدقين والشهداء، لذلك انتشر بين الناس انتشار النار في الهشيم

ساعد على انتشار الإرجاء ظهور كذبة كثيرون يكذبون على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ويروجون للمعاصي من غير قصد، من ذلك الكم الهائل التي تهون من المعاصي أمام التوبة، لدرجة تجعل القارئ يتجاسر على فعل المعصية، فهو بزعمه بمجرد أن يقول تبت إلى اللّه، فالله سيتوب عليه وكأن شيئا لم يكن

وهذا خلاف ما دلت عليه النصوص الصحيحة، نعم اللّه يتوب على من تاب، ولكن من تاب فعلا، وكانت التوبة همه وكان نادما فعلا، وليس مجرد من يقول اللهم تبت إليك دون مبالاة لما ارتكب من ذنب وإليك الدليل

حديث كعب بن مالك رضي اللّه عنه الطويل، فيه أن كعب والرجلين معه هجرهم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم والصحابة خمسين يوما وكان ذلك عليهم أشد من كل أنواع العذاب فقد تنكرت لهم أنفسهم من شدة حزنهم

لما صبروا على البلاء أنزل اللّه التوبة عليهم لأنهم صادقين في توبتهم فعلا وليسوا مجرد مدعين، بينما الذين اعتذروا لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وطلبوا منه أن

يستغفر لهم لم ينفعهم استغفار رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم ولا قبلت توبتهم كما نصت على ذلك الآيات

﴿استَغفِر لَهُم أَو لا تَستَغفِر لَهُم إِن تَستَغفِر لَهُم سَبعينَ مَرَّةً فَلَن يَغفِرَ اللَّهُ لَهُم ذلِكَ بِأَنَّهُم كَفَروا بِاللَّهِ وَرَسولِهِ وَاللَّهُ لا يَهدِي القَومَ الفاسِقينَ﴾ [التوبة: ٨٠]

لذلك توبة الله على من تاب مشروطة بصدق توبة التائب والذي يظهر عند الابتلاء, وليس بمجرد أن من ران على قلبه ذنبه ويقول تبت إلى الله يكون قد تاب فعلا.

لقد زاد الطين بلة قولهم:

لا نكفر أحدا من أهل القبلة بذنب ما لم يستحل

وفي هذا إذن دائم لكل كافر, ليفعل ما يشاء من معاصي وذنوب المهم أن يبقى معترفا بأنها معاصي وسوف يدخل الجنة مع المؤمنين يوم القيامة.

لقد قابلت كثيرا من الكفار يقول أحدهم سوف أعصي الله ما شئت وبعدها أدخل النار برهة من الزمن ثم المصير الجنة, وهكذا لا أحرم متعة الدنيا ونعيم الجنة.

ولا يدري أنه بفعله هذا يكون أكفر من إبليس, وكيف له أن يدري؟

فشؤم المعاصي سود قلبه وأحبار السوء أخبروه بأنه مسلم ما لم يستحل فحاله يوم القيامة هو كما وصف ربنا في قوله :

﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الكافِرينَ وَأَعَدَّ لَهُم سَعيرًا۝خالِدينَ فيها أَبَدًا لا يَجِدونَ وَلِيًّا وَلا نَصيرًا۝يَومَ تُقَلَّبُ وُجوهُهُم فِي النّارِ يَقولونَ يا لَيتَنا أَطَعنَا اللَّهَ وَأَطَعنَا الرَّسولا۝وَقالوا رَبَّنا إِنّا أَطَعنا سادَتَنا وَكُبَراءَنا فَأَضَلّونَا السَّبيلا۝رَبَّنا آتِهِم ضِعفَينِ مِنَ العَذابِ وَالعَنهُم لَعنًا كَبيرًا﴾

[الأحزاب: ٦٤-٦٨]

والعياذ بالله ولا حول ولا قوة إلا بالله.